



مذياع

رئيس مجلس الادارة رئيس التحرير  
www.almadasupplements.com  
العدد (5404) السنة العشرون - الاربعاء (5) نيسان 2023

مذراع  
m a n a r a t

ملحق أسبوعي يصدر عن مؤسسة للإعلام والثقافة والفنون



أنا أحماتوفا

# من لا يحب أنا أحماتوفا

علي حسين

د

ظلت برغم كل المصاعب التي واجهتها تعتبر نفسها جزءاً من الأدب الروسي العظيم فقد كتبت قبل وفاتها بسنوات قليلة: " لن اكف عن كتابة الشعر، انه صلتي بالزمن وبحياة شعبي، وحين اكتب قصائدي، اعيش في ذات الإيقاعات التي يردد صدام تاريخ بلدي، انني سعيدة لانني عشت هذه الاحداث التي لاتعاد لها احداث "

د



١٩٠٥ مجموعة الشعرية "طريق الفاتحين"، بعدها يصدر في باريس دراسة بعنوان وتذهب معه الى باريس، ينيها دراسته في السوربون، يؤسس عام ١٩١٠ مجلة "أبولون"، اعجبت به أنا أحماتوفا عندما تعرفت اليه اول مرة، واستمرت قصة الحب بينهما ثلاث سنوات، كتبت أنا أحماتوفا: "لقد أجبني لمدة ثلاث سنوات حتى الآن، وأعتقد أنه من قدرتي أن أكون زوجته، سواء كنت أحبه أم لا، أنا لا أعرف، لكن يبدو لي أنني أحبه."

وفي تلك السنوات سيؤسس عدد من الشعراء الطليعيين الروس ورشة شعرية ستكون انا ابرز اعضائها، حيث كانت الورشة تهدف الى التعرف على الاتجاهات الحديثة في الشعر الاوربي، عام ١٩١٢ تزور باريس وجنوا وفرنسيا، وتتجول في المعارض التشكيلية الايطالية، وفي نفس العام يصدر ديوانها الاول "المساء"، تطرقت فيه الى موضوع الحب، ولا سيما فقدانها وعذاباته، لكن الديوان الذي طبع منه ٥٠٠ نسخة لم يجد رواجاً، في باريس ولدت ابنتها ليف العام ١٩١٤ يصدر ديوانها الثاني تحت عنوان "زهريه" وكانت قد اختارت مدينة سان بطرسبورغ مكاناً للاقامة، لعام ١٩١٧ يصدر ديوانها الثالث "السرب الابيض" والذي اقر السلطات منعه، وكان عليها ان تتعامل بحذر مع السلطات السوفيتية التي تسلمت زمام الحكم، هاجم النقاد ديوانها "السراب الابيض" واعتبروه مناجاة نفسية في زمن تشهد روسيا تحولات كبرى،

في عام ١٩١٨، حدث الطلاق المتوقع بين أنا أحماتوفا وزوجها، تزوجت بعد ذلك من الشاعر نيقولا نيقولايفتش.

في عام ١٩٢١، يلقي القبض على نيكولايفتش بسبب دوره المزعوم في مؤامرة ملكية ضد الحكومة، وفي آب من نفس العام ينفذ فيه حكم الاعدام. ستختار العزلة حيث تعمل أمانة مكتبة في احد المعاهد الزراعية، العام ١٩٢١ تصدر كتابين جديدين وهما لسان الحمل وعام الغد، في تلك السنوات تتفرغ لدراسة اعمال بوشكين، لكن السلطات تبدأ بمضايقتها، فقد اتهمها النقاد بانها شاعرة مسيحية، وتتخلل اشعارها الرؤى والإيماءات الدينية، وانها غير مؤمنة بالاشتراكي والنضال من اجل المستقبل، بل ممثلة بالحنين الى الماضي، وهو ما سبب عداوة الاوساط الثقافية الرسمية لها وستكتب:

"لست نبية استشراف الاشياء المقبلة. وتنساب حياتي مشرقة مثل جدول متالق  
انا ببساطة لا اشعر بدافع للغناء  
إذا كانت مفاتيح السجن هي التي يجب ان تحدد لحنى"  
وبسبب قصائدها التي هاجمت فيها ما حدث في الثلاثينيات، وقضية اعدام زوجها وسجن ابنتها، منعت انا من النشر:  
اي قدر جديد اعلمه  
للذين لم يقض عليهم الجلال  
يانجوم السماء في الاعالي

بحسب قوي ومتكامل إلا بعد الحرب العالمية الثانية. ولكن خطأ هذا الاعتقاد يبدو واضحا لان ديوان شعرها الاول يكفي لان نطلق عليها صفة الشاعرة التي تهتم بقضايا شعبيها. بعد ذلك سأكتشف أحماتوفا من خلال الكتاب الذي اصدره الشاعر الكبير حسب الشيخ جعفر بعنوان "أنا أحماتوفا.. قصائد مختارة" حيث سنطلع على قصائد هذه الشاعرة الساحرة من خلال ترجمة ممتعة عن الروسية.. في مقدمة المختارات نقرأ هذا الوصف الذي كتبه حسب الشيخ جعفر للشاعرة الروسية: "كانت أنا أحماتوفا اجمل امراة في زمانها. وقد كتب الشعراء، انذاك قصائد عديدة عنها.. كما عمل الفنانون صور عديدة لها، ومن الواسعيين من جعل من قصائدها اعمالا موسيقية."

كان حسب الشيخ جعفر قد حط الرحال في موسكو عام ١٩٦٦ لدراسة الادب في معهد غوركي، وخلال تلك السنوات يجيد الروسية ويحصل على الماجستير في الاداب.. عام ١٩٦٩ يصدر حسب الشيخ جعفر مجموعة شعرية الاولى "نحلة الله" لتتوالى بعدها مجاميعه الشعرية.. لكنه سيركس جهوده لترجمة الشعر الروسي، تصدر له عام ١٩٧٩ مجموعة قصائد مايكوفسكي، ثم مجموعة قصائد ليسنين، وبعدها يترجم لنا اشعار الكسندر بيلوك، ومختارات من بوشكين، وكانت المفاجأة عام ١٩٩١ "مختارات انا أحماتوفا" .. وقد كان في كل ترجماته يسعى لأن يجعل من القارئ يطل بعينين متلصصتين على اعماق الانسان الروسي.

قال مهندس البحرية لزوجه ان هذه الفتاة لم تكن علامة بشارة لنا، فقد تم تسريحى من الخدمة بعد ولادتها باسبوع، وسيقرر الاب العاطل عن العمل ان يأخذ عائلته ويرحل من القرية الصغيرة الى مدينة شمال روسيا، ولدت أنا أحماتوفا في الثالث والعشرين من حزيران عام ١٨٨٩، وهي تذكر هذا التاريخ بشعور عسكرة فتكتب: ولدت في العام نفسه الذي ولد فيه شارلي شابلن واصدر فيه تولستوي روايته سونتا كروتز، وشيد برج ايفل وربما هو نفس العام الذي ولد فيه اليونان، في طفولتها سترعج والدها كثيرا لانها ترفض الذهاب الى الكنيسة، قبل ان تدخل المدرسة تتعلم القراءة من خلال كتب تولستوي المبسطة للاطفال، كتبت قصيدتها الاولى وهي في الحادية عشر من عمرها، تسهرها كتابات بوشكين وليرمانتوف، لكن القصيدة التي اثرت كثيرا فيها كانت قصيدة "موت شاعر" التي كتبها ليرمانتوف احتجاجا على مقتل بوشكين، وكانت تردد القصيدة امام امها التي كانت تقول ان الشيطان تلبس ابنتها، عام ١٩٠٥ سبترتهم والدها بعد ان انفصل عن امها، وكان هذا العام قد شهد ثورة كبرى في روسيا، تختار الام مدينة كييف للسكن، هناك تدرس أنا قواعد اللغة الروسية لتتخرج عام ١٩٠٧، لتتحقق في كلية القانون، حيث تدرس تاريخ القانون، ولم تشعر يوما ان دراسة القانون ستؤثر عليها كشاعرة، عام ١٩١٠ تزوج من نيكولايفتش غوميليف، احد ابرز شعراء الطليعة في روسيا، نشر عام

المعي فوقهم ولهم  
فلن يدوقوا بعد الان قوت الارض.  
ولن يرووا اعين الذين يحون

سستعرض أنا أحماتوفا الى محنة جديدة حين يتم القاء القبض على زوجها نيقولايفتش وابتها ليف غوميليف اثناء الحملة التي قادها ستالين ضد المعارضين وقد اضطرت ان تكتب رسالة الى جوزيف ستالين تطالبه باطلاق سراح زوجها وابنتها، والرسالة مؤثرة ترجمها الى العربية استاذنا الدكتور ضياء نافع:

(يوسف فاسيريونوفيتش الموقر:  
قررت ان أتوجه اليكم بهذه الرسالة، لاني اعرف موقفكم تجاه القوى الثقافية للبلاد، وبالالخص تجاه الابداء. لقد اعتقلت قوميسارية الشؤون الداخلية في ٢٣ تشرين الاول في لينينغراد زوجي نيقولايفتش لايفتش البروفيسور في اكااديمية الفنون وابني ليف نيقولايفتش غوميليف الطالب في جامعة لينينغراد الحكومية.

يوسف فاسيريونوفيتش، انا لا اعرف بماذا يتهموهم، لكنني اعطيكم كلمة شرف، بانهما ليسا من الفاشست ولا من الجواسيس، ولا من المشاركين في الجمعيات المضادة للثورة. اني اعيش في اتحاد الجمهوريات السوفيتية الاشتراكية منذ بداية الثورة، ولم أرغب بتاتا بمغادرة البلاد التي يشدني اليها عقلي وقلبي، على الرغم من ان اشعاري لا يطبعونها، والتقييمات النقدية تجاهي تسبب لي الكثير من اللحظات المريرة، لكن عزيمتي لم تنهار، وأنا مستمرة بالعمل في ظروف معنوية ومادية في غاية الصعوبة، واصدرت عملا عن بوشكين، والعمل الثاني معد للطبع، اني اعيش في لينينغراد بانزعالية تامة، وغالبا ما اتمرض ولغترات طويلة. ان اعتقال

أقرب اثنين لي هو ضربة لا استطيع ان اتحملها.  
أرجوكم، يا يوسف فاسيريونوفيتش "اعادة زوجي وابني الي، وانا متأكدة، انه لن ياسف أحد بخصوص ذلك ابدا.  
أنا أحماتوفا).

وعندما تتدلع الحرب العالمية الثانية وتغزو جيوش هتلر بلادها وتحاصر مدينتها بطرسبورغ التي اصبح اسمها انذاك ستالينغراد، راحت تكتب عن الوطن، وتشيد بالجنود الذين يدافعون عنه فالوطن اعلى من الحكومات " وقد كانت قصائدها تبث من خلال الاذاعة الرسمية، بعد نهاية الحرب ترحل الى موسكو: "لقد اكتشفت قيمة النوع الانساني. بدأت انظر الى الحياة بشكل مختلف "

تعاطف معها ابداء الحرب، لكنها كانت غاضبة حيث وصفتهم بالقول: "هناك في الغرب يكتبون انني انتمي الى العقد الاول من القرن العشرين، وبعد ذلك جف منبع الهامي وسقطت صامتة. ولكني لم اكتب ما هو اغزر مما كتبت في الاربعينيات. انا لا انتمي الى الماضي او غارقة فيه "

العام ١٩٦٤ تمنحها جامعة اكسفورد درجة الدكتوراه الفخرية في الادب. كانت انذاك في الخامسة والسبعين من عمرها، وقد عانت ثلاث ازمات قلبية، وكان في قرار منح الدكتوراه الفخرية باعتبارها: "وريثة لبوشكين، وامتداد للادب الروسي الذي انصف بسمات الاحساس العميق، والفكر الجاد، وبساطة التعبير والصدق، فان أنا أحماتوفا عاشت مسيرة ادبية طويلة وصعبة، انفردت فيها بقوة موهبتها مما جعلها تقف في طليعة الشعراء الروس "

عاشت أحماتوفا وماتت وهي تحب وطنها وفي اصعب المحن التي مرت بها رفضت ان تغادر البلاد، وفي اخرج فترات الدفاع عن ستالينغراد ضد الغزو النازي كانت قصيدتها "شجاعة" تعلق على الجدران، وقد رفضت برغم مرضها ان تغادر المدينة، لانها حدثت بصديق موقفها من الوطن:  
سمعت صوتا ينادي يهددني  
توسل الي: تعالي هنا!  
غادري ارض روسيا الخاطئة  
الى ابد: تعالي الى بلاد الاجانب  
سوف اجعل يدك المضرجين بالدم حلوتين  
ولسوف اطهر قلبك من العار  
ومن الام الاهانات والهزيمة  
ساشبع فيك الطمانينة بمنحك اسما جديدا "

بكفي الاثنتين ضغظت على اذني  
وبعقل صاف ومتماكس  
حتى لا ادع البداية  
تدس روحى المتاملة.  
برغم المعاناة والمصاعب عاشت أنا أحماتوفا فضورة بنفسها وشعرها الذي قررت ان تجعله روسيا بما يكفي لكي يقرأ بصوت عال.

في مثل هذا اليوم الخامس من آذار عام ١٩٦٦، اعلنت وكالات الانباء رحيل الشاعرة الروسية أنا أحماتوفا، وكان سبب الوفاة نوبة قلبية حادة لم تمهلها طويلا.

اكتشفت أنا أحماتوفا من خلال قصائد قليلة نشرتها مجلة الاداب، ولم تكن هذه القصائد تثير اهتمامي رغم ان كاتبها روسية، فقد كنت اخصر الادب الروسي انذاك بتولستوي ودوستويفسكي وتشيكوف وغوغول، هؤلاء الاربعة الذين اتابعهم، لم اكن اعرف شيئا عن الشعر الروسي، حتى انني لم اقرأ لأكبر شعراء روسيا بوشكين سوى روايته "أبنة الامر" .. وكان الذين من حولي يملكون القليل من المعلومات عن هذه الشاعرة، التي كان اسمها مجهولا للرقاء من امثالي، لكن في نهاية السبعينيات حدثني الراحل سامي محمد وكان من رواد المكتبة الدائميين، عن أحماتوفا والتي وصفها بانها النسخة الروسية من فرجينيا وولف، فتملنا كتبت الروائية الانكليزية عن حالها وحال النساء، كانت أحماتوفا تدر ان ما كتبتة يمثل تجربة المرأة.. تجربة شجاعة وجريئة لكنها قاسية.

عندما نظرت فيما بعد الى صورة أنا أحماتوفا وجدتها قريبة الشبه من فرجينيا وولف، خفيفة مثلها، الانف يشبه الانف، الملابس على بساطتها تخبرنا ان صاحبها تنتمى الى طبقة راقية.. ومثل فرجينيا وولف عاشت أحماتوفا حياة صعبة، وتملنا جعلت كتابات فرجينيا وولف الاولى من صاحبها ادبية مشهورة، كانت القصائد الاولى لأحماتوفا قد وضعتها على سلم المجد. إلا ان أحماتوفا تختلف عن فرجينيا وولف بانها رغم الماساة الشخصية التي عانت منها، لكنها وجدت نوعا من التناؤل في الادب وايضا نوعا من الايمان بالنفس تكتب: "ان الظروف الخارجية هي ما هي عليه، لكن في اعماق داخلي، هناك جزء لن يتم سحقه ابدا" .. لكنها ايضا مثل فرجينيا وولف كتبت عن الخيانة والجنس والحب، وعن المرأة عندما تكون عشيقه او تحرم من حبيبها، كانت أحماتوفا تعتقد ان على الشاعر ان يمتلك رصيда من المعرفة في التاريخ والفلسفة والجغرافية وبقية فروع العلم الأخرى، ولهذا نجدها تدرس التاريخ ونقرأ شكسبير بلغة الاصلية، وتتقن اللاتينية، وتدرس العمارة وتكرس سنوات من حياتها لدراسة بوشكين، فيما تفرغت فرجينيا وولف لدراسة علم النفس وذهبت للقاء فرويد، وفي مقالاتها كان اسم جيمس جويس يرد كثيرا حيث تاخذ عليه ان رواياته تترك التفكير، في الوقت الذي تكتب فيه عن مارسيل بروست: "قراءة بروست تجعلني أشعر بانني حرة وباستطاعتي الهروب، مقارنة بلورنس الذي أشعر معه بانني محتجزة "

بعد حديث سامي محمد عن أنا أحماتوفا، سأجد زبونا آخر من زبائن المكتبة شغوف ايضا بالشاعرة الروسية، وأعني بهذا الزبون الروائي الراحل غالب هلسا الذي قدم دراسة مهمة نشرت في مجلة الاقلام ركز من خلالها على القصائد الوطنية التي كتبها أنا أحماتوفا "يكتب هلسا: "هناك جمهور كبير يعتقد ان الموضوعات الوطنية لم تظهر في شعر أحماتوفا

# قصائد مختارة للشاعرة الروسية آنا أخماتوفا (1889-1966)

ترجمة وتقديم: ماجد الحيدر

”

آنا أخماتوفا (واسمها الحقيقي آنا أندرييفنا كورينكو) شاعرة روسية/سوفيتية تركت أثراً عميقاً على الشعر الروسي الحديث. تناولت في أعمالها (التي تراوحت بين المقطوعات القصيرة البسيطة إلى المطولات المركبة) عدداً متنوعاً من المواضيع مثل الزمن، الذكريات، الحب، الخيانة، مصير المرأة المبدعة، وصعوبات الكتابة والعيش في ظل الستالينية. ترجمت أعمالها إلى العشرات من اللغات وُعدت واحدة من أشهر الشعراء الروس في القرن العشرين.

“

ولدت أخماتوفا في أوديسا – أوكرانيا وبدأت الكتابة في سن الحادية عشرة متأثرة بشعرائها المفضلين راسين وبوشكين وباراتينيسكي، وعندما رفض والدها رؤية اسمه "المحترم" على قصائدها المطبوعة اختارت تبني لقب جدتها التتارية إسماً فنياً لها. حظيت أنا بإعجاب وحب العديد من شعراء روسيا وتزوجت عام 1911 الشاعر "نيقولا غومليوف" الذي سرعان ما تركها متوجهاً إلى صيد الأسود في أفريقيا ثم إلى سوح الحرب العالمية الأولى غير مدرك لأهمية شعرها حتى فاجأه الشاعر الشهير "الكسندر بلوك" بأنه يفضل شعرها على شعره!

نشرت مجموعتها الأولى "المساء" عام 1912 وحازت على الكثير من الإعجاب والثناء والشهرة حتى أن روسيا كانت بحلول عام 1914 – موعد صدور مجموعتها الثانية – تعج بالآلاف من الشعراء اللاتي يكتبن الشعر على الطريقة "الأخماتوفية" مما دفعها إلى التعليق قائلة: لقد علمت نساءنا كيف يتحدثن، لكنني لا أعرف كيف أسكتهن!

بعد انهيار زوجها ارتبطت أخماتوفا خلال الحرب العالمية الأولى بالشاعر وفنان الموزايك "بوريس أنريب" الذي كتبت عنه ما لا يقل عن 34 من قصائدها وقام بدوره بتجسيدها في العديد من لوحاته التي حفظ بعضها في عدد من المتاحف العالمية.

أعدم زوجها الأول عام 1921 لنشاطاته المعادية للثورة فزوجت عالم الإشوريات البارز "فلاديمير شيليجكو" ثم الباحثة الأدبية "نيقولا بونين" الذي توفي في معسكرات الأشغال الشاقة. أدينت بعد عام 1922 لـ "ميولها البورجوازية" ولم تنشر بعدها إلا نادراً حتى الحرب العالمية الثانية وحصار لينينغراد الأسطوري فكتبت العديد من أشعار المقاومة البطولية التي وجدت طريقها إلى جبهات القتال كما إلى الصفحات الأولى من صحيفة "البرافدا". غير أن "أندريه جدانوف" المسؤول عن الثقافة في عهد ستالين وصمها عام 1945 بأنها "نصف مومس ونصف راهبة" ومنع قصائدها من النشر وسعى إلى طردها من اتحاد الكتاب وسجن ابنها في معسكرات العمل القسري حتى اضطرت إلى كتابة بعض المدائح لستالين لتأمين إطلاق سراحه.

بعد وفاة ستالين أعيد إليها الاعتبار وصدرت طبعة خاضعة للمراقبة من أعمالها وأصبح منزلها الريفي مزاراً للأدباء الروس (أمثال "جوزيف بروفسكي" وزملائه الذين وصلوا تقاليد أخماتوفا ومدرسة "سان



كلمات الرجل الذي مضى.  
هكذا سبتل... حتى تمنح أنفاس الثلج  
هذه المتعبة الهزيلة  
بعضاً من الرحمة.  
وما الذي قد نرجوه  
غير سلوان الحب والعذاب  
رغم أن الحياة.. هي من يدفع الثمن؟  
× ترابنا الوطني  
(ما من شعب على الأرض  
ساذج، متشامخ، عصي الدمع.. مثلنا..  
(1922))  
لا نحمله في قلاند تتدلى على صدورنا  
ولا نبكي عليه في القصائد.  
لا يوقظنا من نومنا المرير  
ولا يبدو لنا مثل عدن الموعودة.  
في قلوبنا لا نحاول جعله  
موضوعاً لشجار الصفقات.  
حين نمرض أو نحزن أو نسقط فوقه منهكين  
نعجز حتى عن رؤيته أو معرفته.  
نعم، هذا الوحل على الأقدام يناسبنا تماماً.  
نعم، هذا الطحن على الأسنان يناسبنا حقاً.  
نعم، ندوسه ليل نهار..  
هذا الغبار الخالص الذي لا يصلح للبناء.  
لكننا نرقد فيه ولا نصير إله  
ولهذا نسمة هذا القرب.. ترابنا!  
× الموسيقى  
ثمّة شيء سماوي يتقدّ فيها.  
كم أحب أن أراقب  
أسطح هذه الجوهرة العجيبة إذ تنمو.  
إنها تتحدث معي في نوبات القدر الكثيرة  
حين يخشى الآخرون الدنو منها  
وحين يلقي آخر الأصدقاء  
علي نظرة الوداع  
سترقد إلى جواربي في سكون  
وتغني مثل عاصفة رعديّة في آبار  
كما لو أن كل الورود  
شرعت في الحدائق بالحديث.  
× قد ولدت في الوقت المناسب  
أنا، في الإجمال  
ولدت في الوقت المناسب  
في عصر مبارك بين العصور.  
غير أن الرب العظيم لم يدع روحي  
كي تعيش على هذه الأرض  
دون خديعة.

ولهذا بيتي مظلم

ولهذا كل صحابي

مثل طيور حزينّة تنهض في المساء

وتغني للحب

للحب الذي لم ينزل على الأرض.

× قراءة هاملت

١

الأرض التي عند المقابر

كانت أرضاً متربة.. ساخنة.

والنهر من ورائها.. بارد.. أزرق؟

أنت قلت لي حسناً، انهبي إلى الدير

أو تزوجي أحماً ما..

هكذا يتحدثُ الأمراء يوماً، قاسين كانوا أو طيبين.

بيد إني أعز هذا الحديث.. الأخرق.. الوجيز..

فليتدفق ويشرق عبر آلاف السنين

مثل معاطف فراء على الأكتاف!

٢

وكما لو بالخطأ

قلت لك "أنت.."

وأضاعت بسمه رخيّة من سعادة

هذا الوجه العزيز.

من زلات لسان كهذه

مسمومة كانت أم في العقل

يتورد كل حد.

أحبك كما لو أن أربعين أختاً

أحببتك وباركتك!

كلا بقسمته..

وكل ذئب.. لا بد أن يُصاب.

الذئب تكبر حين تكون حرة

لكن أجالها قصيرة.

في الثلج، في الجليد، بين الحشائش..

كل ذئب.. لا بد أن يصاب.

لا تيك يا صديقي العزيز

لو أنك، في الحر أو في البرد

سمعت ندائي البائس الحزين.

قادماً من دروب الذئب.

× لم هذا القرن أسوأ..

لم هذا القرن أسوأ من غيره؟

ربما لأنه، في هذا الحزن والخطر

لامس.. لامس فحسب.. أكثر القروح سواداً

ولم يستطع.. في دورته.. شفاءها

وأيضاً.. هناك في الغرب

تغمر الشمس الدنيوية

سقوف المدائن بنور الصباح

لكن البيض، هنا، يضحون العلامات على البيوت

ويستدعون الغربان فتطير.. تطير

× امرأة في ثياب الحداد

الخريف الباليكي يسكو القلوب

بغلالة من غمام كئيب.

والمرأة في ثياب الحداد

لن تكف عن ندبها العالي

ما دامت تتذكر بجلاء

بطرسبرغ" حتى هذا القرن) والأجانب (أمثال شاعر أميركا الكبير روبرت فروست). كما أقيمت لها احتفالات تكريمية بمناسبة بلوغها الخامسة والسبعين وصدرت طبعة خاصة من أعمالها. حظيت أخماتوفا بشهرة كبيرة في الغرب ونالت التكريم ونشرت أعمالها الشعرية والنثرية في كثير من بلدان العالم كما حصلت على الدكتوراه الفخرية من جامعة أوكسفورد. ولم تتوقف شهرتها بوفاتها، وفي الذكرى المئوية لولادتها صدرت أخيراً مجموعتها "قداس لراحة الموتى" التي منعت من النشر خلال حياتها، وتحولت شقتها إلى متحف يرثاه محبوبها، وأقيم لها تمثال في سنت بطرسبرغ كما أطلق اسمها على أحد الكواكب الصغيرة التي اكتشفها اثنان من علماء الفلك السوفييت عام 1982.

× أنت يا من ولدت..

أنت، يا من ولدت لتخلق القصائد

لا تعد ما قال الأولون

رغم أن شعرنا نفسه

ربما لم يكن كله

غير اقتباس واحد جميل.

× ستعيش أنت، أما أنا فلا..

ستعيش أنت، أما أنا فلا، ربما

هكذا الانعطاف الأخير.

أه بأية قسوة تمسك بخناقنا

مكيدة القدر الغامضة!

تصيبنا كلا بطريقته

كلا بدوره

# أنا أخماتوفا.. ملكة ذات طابع مأساوي

جودت هوشيار

د

في عام ١٩١٢ كانت أنا أخماتوفا في الثالثة والعشرين من عمري. امرأة جميلة، مفعمة بالأثوثة والبراءة، وشاعرة رقيقة ذات موهبة عظيمة، وتحب النزول في وقت متأخر من الليل الى قبو مقهى "الكلب الضال" في العاصمة بطرسبورغ، وعلى كتفيها شال، وفي جيبها عقد من اللؤلؤ، وكانت قصائدها تعكس عمق شخصيتها، وتنطوي على حقائق نفسية ووجدانية قوية، تثير رغبات حسية دنيئة وموجعة، عبر شكل شعري متألق، بوسائل لغوية بسيطة. كانت الأحلام ما تزال ممكنة التحقيق، ولم يدر يخلدها في ذلك الحين، إن المستقبل محمّل بالمصائب.

د

ولدت أنا أخماتوفا في ٢٣ يونيو عام ١٨٨٩ في أوديسا. وكتبت في سيرتها الذاتية تقول: "ولدت في العام ذاته الذي ولد فيه تشارلي شابلين وصدرت رواية تولستوي (كريتزر سوناتا)، وبني برج إيغل". كان والدها أندريه غورينكو مهندساً بحرياً متقاعد، ووالدها أيضاً ستوغوفا سليلة عائلة تنازية عريقة، وينتميان الى الطبقة العليا في المجتمع. ولكن العائلة انتقلت الى العاصمة بطرسبورغ بعد سنة واحدة من ولادتها. قضت طفولتها ومرآقتها في بطرسبورغ وكيف، وتعلمت الفرنسية في سن مبكرة، وكتبت أولى قصائدها عام ١٩٠٤. درست اللاتينية والتاريخ والقانون

وفي عام ١٩١٠ تزوجت الشاعر نيقولاى غوميلوف (١٨٨٦-١٩٢١)، وسافرا الى باريس لقضاء شهر العسل، وقامت برحلة أخرى الى باريس عام ١٩١١، وزارت إيطاليا عام ١٩١٢. وقد التقت خلال رحلتها الثانية الى باريس بالفنان والنحات الإيطالي اميديو موديليانى (١٨٨٤-١٩٢٠) الذي خلدها في ١٦ لوحة فنية رائعة بعضها بالألوان وأخرى تخطيطية. كانت تلك فترة ذهبية في حياتها

وعندما بدأت بنشر أعمالها عام ١٩١١ إختارت الشاعر لنفسها "أخماتوفا" كاسم فني - بدلاً من لقب والدها غورينكو - اعتقاداً منها أن أحد أسلافها "احمد خان" كان اميراً تترياً ينتمي الى سلالة "جنكينز خان". في عام ١٩١٢ أنجبت ابنها ليف، ونشرت أول ديوان لها بعنوان "المساء". وسرعان ما ذاعت شهرتها في الأوساط الأدبية الروسية. وقال النقاد الروس عنها، إن موهبة جديدة قد ظهرت في الشعر الروسي. وقد تعززت مكانتها الأدبية بصدور عدة دواوين شعرية لها في السنوات اللاحقة.

لم تكن الحياة تنبأ بعد بأية مصائب. كتبت الشعر، وسهرت للليالي، وشربت الشمبانيا، ولكن الحرب الأهلية التي رافقت ثورة أكتوبر، وضعت حداً لكل هذا. اللوحات ضاعت أو احترقت خلال الحرب الأهلية. ولم تبق لدى الشاعرة سوى لوحة واحدة فقط، كانت تعلقها على أحد الجدران في غرفة نومها حتى آخر يوم في حياتها. وتقول أخماتوفا إن موديليانى كان يعيش في فقر مدقع حتى انه لم يكن قادراً، على دعوتها الى أحد المقاهي ودفع



ثمن فنانين من القهوة. ومع ذلك فقد كانت السعادة تغمرها بصحبة العبقري الإيطالي الوسيم الذي توفي بعد ذلك بسنوات قليلة، وترك ندية لا تندمل في قلب أخماتوفا. ففي أيامها الأخيرة كتبت في مذكراتها: "كانت حياة موديليانى قصيرة، وحياتي طويلة".

في اغسطس عام ١٩١٨ انفصلت الشاعرة عن زوجها الشاعر نيقولاى غوميلوف، أبرز أعضاء "ورشة الشعراء" الشهيرة، ومؤسس مدرسة "الأكميزم" أو "الذروة الروحية"، والذي أعدم في عام ١٩٢١ بتهمة الانضمام الى تنظيم سرى للضباط (البيض)، فقد كان غوميلوف ضابطاً لامعاً في العهد القيصرى. وفي ديسمبر من العام ذاته تزوجت فلاديمير شيليكو، العالم المتخصص في حضارة وادي الرافدين، وأول مترجم للمحمة جلجامش الى اللغة الروسية. ولكن هذا الزواج لم يدم سوى ثلاث سنوات.

وفي عام ١٩٢٢ تزوجت المؤرخ نيقولاى بونين. وكان زواجاً موفقاً، ولكنه اعتقل في عام ١٩٣٨ وحكم عليه بالسجن خمس عشرة سنة، وقضى نحبه من الإنهاك الجسدي في أحد معسكرات العمل الاجباري الشاق. وكان ابن الشاعرة الوحيد، ليف غوميلوف سجيناً أيضاً في هذا الوقت.

خيم الظلام والوحدة والياس على حياتها وظهر في شعرها (المحظور من النشر والتداول منذ منتصف العشرينيات) صرخات الألم والشعور بالوحدة. وعاشت دون أن يلوح لها في الافق بارقة أمل. شعرها في هذه الفترة كان يعبر عن الحب الأنثوي المأساوي، حيث تمتاز العاطفة والحزن بالأمل. قوة شخصية الشاعرة وثباتها، سمحت لها بالبقاء على قيد الحياة في سنوات القمع الرهيبة، رغم فقدان زوجها واعتقال إبنتها، وحظر نشر قصائدها.

## قداس جنازى

في عام ١٩٣٥ بدأت بكتابة قصيدتها الطويلة الرائعة "قداس جنازى" وهي قصيدة سيرة ذاتية وتعكس معاناتها الداخلية. هنا تجلت عظمة أخماتوفا كشاعرة مبدعة. هذه القصيدة، التي قضت الشاعرة حوالي عشر سنوات في كتابتها، هي دليل على نضجها كشاعرة. كانت تعيش في فقر مدقع، تعاني من الجوع والبرد، وتشعر بالنفور من الواقع الكئيب، الذي كان يعج بالخبرين السريين، لكنها لم تفقد احترام الذات. في هذه الظروف الصعبة كانت تكافح ضد الواقع المرعب بسلاح الشعر: "وقفت آنذاك مع شعبي وتقاسمت معه محنتي".

لم تحاول الهجرة إلى إحدى الدول الغربية، كما فعل العديد من الأدباء الروس المعروفين من أصدقائها، وظلت في الاتحاد السوفيتي، وأحرق جزءاً كبيراً من أرشيفها، الذي كان الاحتفاظ به يعرض حياتها للخطر، لكن الناس حفظوا أشعارها عن ظهر قلب، وكانوا يتذكرون صوتها وقصائدها.

تاورمينا الواقعة بجزيرة صقلية الإيطالية، تم خلاله تقليد الشاعرة جائزة جمعية الكتاب الأوروبيين في مجال الشعر، بحضور جمع كبير من الكتاب والشعراء من معظم البلدان الأوروبية. ألفت أخماتوفا مختارات من قصائدها، التي قوبلت بحماس عظيم، ونهض الحضور ووقفاً لتحياتها، رغم أن معظمهم - باستثناء الوفد السوفيتي - لم يكن يعرف اللغة الروسية - وكان ذلك تحية لملكة الشعر والأدب الروسي العظيم.

شهادة الدكتوراه الفخرية من جامعة أكسفورد في ٥ يونيو ١٩٦٥ منحت جامعة أكسفورد شهادة الدكتوراه الفخرية في الأدب لأنا أخماتوفا.

ولأول مرة في تاريخ الجامعة، كسر البريطانيون التقليد الأكاديمي الراسخ: لم تصعد أنا أخماتوفا الدرج الرخامى لاستلام شهادتها من يد رئيس الجامعة، على النحو المعتاد، بل إن رئيس الجامعة هو الذي نزل إليها. كما أن أخماتوفا اعتذرت عن وضع القبعة التقليدية على رأسها لأنها - كما قالت - لا تلائمها. ووافق رئيس الجامعة على استثناء ملكة الشعر من هذا التقليد الراسخ أيضاً.

في اليوم التالي كتبت الصحف البريطانية: إن جامعة أكسفورد منحت شهادة الدكتوراه الفخرية.

إلى "أعظم الشعراء الروس المعاصرين - أنا أخماتوفا البالغة من العمر ٧٦ عاماً، والتي يعكس شعرها ومسيرها، مصير الشعب الروسي" - توفيت أخماتوفا بنوبة قلبية في مصحة بالقرب من موسكو في ٥ مارس ١٩٦٦. لكن عملها استمر في العيش والقتال.

## أخماتوفا وجائزة نوبل في الأدب

دأبت أكاديمية العلوم السويدية - مانحة جوائز نوبل - على الحفاظ على سرية وثائقها الأرشيفية لمدة خمسين عاماً. وكما يتضح من الوثائق المنشورة في يناير عام ٢٠١٦ أن أخماتوفا كانت ضمن لائحة المرشحين لنيل

جائزة نوبل في الأدب عام ١٩٦٥ وجاء في تلك الوثائق أن رئيس لجنة نوبل "أندرس أوسترلوند" قال خلال تقييم قصائد أخماتوفا: "لقد تأثرت كثيراً بالإلهام القوي للشاعرة، وتأثرت أكثر لمسيرها وارتغامها على الصمت الاجباري لسنوات طويلة". وقد ذهبت الجائزة في ذلك العام الى مرشح الدولة السوفيتية "ميخائيل شولوخوف"، بعد أن حشد الاتحاد السوفيتي تأييد الأوساط الأكاديمية، والفائزين بجائزة نوبل من الكتاب والشعراء اليساريين، ومارس ضغوطاً دبلوماسية واقتصادية على السويد. وهذا لا يعنى بحال من الأحوال أن شولوخوف لم يكن يستحق الجائزة.

كما تشير وثائق الأكاديمية السويدية التي كشف النقاب عنها عام ٢٠١٧ أن أخماتوفا كانت من أبرز المرشحين لنيل الجائزة عام ١٩٦٦. ولكن وفاة الشاعرة في مارس من ذلك العام أدى الى صرف النظر عن ترشيحها.

## نكرى أخماتوفا

يتمتع إبداع أخماتوفا بتبجيل عظيم في بلادها، وفي العالم الغربي. وقد خلدت روسيا نكرى الشاعرة بطرق شتى. فهناك متحف أخماتوفا في بطرسبورغ، وتمثال أو جدارية لها في كل مدينة روسية عاشت فيها ولو لبضع سنوات، منها ثلاثة تماثيل في مدينة بطرسبورغ وتمثال في موسكو. وفي كل مدينة من تلك المدن شارع يحمل اسمها. كما أطلق الفلكيون الروس اسمها على كويكب اكتشف عام ١٩٨٢، وعلى فوهة بركان في كوكب الزهرة. إضافة الى عدد من المكتبات العامة والبواخر السياحية. وثمة العديد من لوحات البورتريه للشاعرة رسمها كبار الفنانين الروس، وأفلام سينمائية تصور حياتها المليئة بالأحداث الدراماتيكية.

كما حولت قصائدها الى أوبريتات وباليهات وأغان يصعب حصرها. وكتبت عنها عشرات الكتب والأطروحات العلمية. واحتفلت روسيا في ٢٣ يونيو من كل عام بذكرى ميلاد الشاعرة حيث تقام فعاليات ثقافية جماهيرية، يلقي خلالها أشهر الممثلين والممثلات الروس قصائدها الوجدانية التي تهز المشاعر بصورها الفنية المدهشة.

## جائزة جمعية الكتاب الأوروبيين

في أواخر ديسمبر ١٩٦٤ أقيم احتفال مهيب في مدينة

## أنا أخماتوفا وموديليانى:

# تعاهدا على الموت معاً ثم ذهبا لمصيرين متباعدين

شوقي بزيح

د

لم تكن العلاقة العاطفية التي جمعت بين الشاعرة الروسية المعروفة أنا أخماتوفا، والرسام الإيطالي الشهير أميديو موديليانى، منبئة تماماً عن سياق "الغزو" الأثوي الروسي للقارة الأوروبية في القرنين الفاتنين. فقبل علاقة أخماتوفا وموديليانى بعدة عقود كانت هناك لو سالومي التي خلبت لب نيتشه وريكه وفرويد وعباقرة آخرين. وبعدها بسنوات كانت ليلي بريك تكسر قلب ماياكوفسكي شاعر الثورة البلشفية، وتوقع في حياتها عدداً من كتاب الغرب، تماماً كما كان حال أختها إلسا تريبوليه التي عبر قلبها محطات عدة قبل أن يستقر عند أرغون، وحال غالا التي كانت حبيبة بول إيلوار، قبل أن تقع في غرام سلفادور دالي وتقضي معه بقية حياتها.

د



لقائه بأخماتوفا عام ١٩١٠ في مقهى روتوندا الذي كان ملتقى للكاتب والفنانين في ذلك الوقت. وحيث أعجب كل منهما بالأخر لم تأبه أخماتوفا بالوضع المادي المزري لشريد المدن البوهيمي، الذي تروي عنه أنه اضطر أن يقاسمها مقعداً حجرياً في إحدى حدائق باريس لأنه لم يكن يملك المال اللازم لدعوتها إلى المطعم المجاور.

أما زيارتها لمنزل الفنان فتؤكد اعترافاتها الشخصية، وقولها في وقت لاحق "كان بيته مليئاً بالرسومات من الأرض حتى السقف، وكنا ندرش عن الشعر لساعات، نتلو خلالها أبياتاً لبودلير وأبولينير وفيرلين ومالارميه الذين نحفظ أبياتهم عن ظهر قلب". فيما أعرب أميديو عن افتتانه بالزرافة الطويلة التي تشبه الملكات الفينيقيات بشعرها الأسود وأذنيها الملتصقتين وأنفها المعقوف. وحين عرض عليها رسم بورتريهات لها لم تتأخر في الموافقة، لكنها لم تقر بتعريفها أمام الفنان، معلنة أنه رسمها من عنديات خياله المحض، نافية في الوقت ذاته أي تواصل جسدي بين الطرفين.

وحيث عادت أخماتوفا لتعيش مع غوميليوف ووالدته في غرفة ضيقة في تسارسكوي سيلو، لم يكن لنشاطهما الشعري المشترك أن يزيل من مخيلتها الأطياف الساحرة للفنان الإيطالي الوسيم. وإن بدأت علاقتهما بالترنح بفعل التنافس الشعري الضمني، وبفعل فائض الرغبات والتعلق المرضي بالحرية، استغللت أنا سفر زوجها إلى أفريقيا ومكوته أشهراً معدودة لممارسة هواية الصيد،

أما أنا أخماتوفا المولودة في أوديسا الأوكرانية عام ١٨٩٩ فكانت خليطاً مثيراً للحيرة بين الفتنة الجمالية المندفعة باتجاه الحياة وبين التراجيديا المؤلمة التي كانت تهوى لأعظم شاعرات روسيا مألها القاتم. وقد عمدت الشاعرة المولودة تحت اسم "أنا غورينكو" إلى تبني اسم جدتها التنزية أخماتوفا، بعد أن زجرها أبوها العسكري المحتج على نزوعها الإباحي قائلاً "لا توشخي اسم العائلة النبيلة بأبيات وقحة ومنحطة لتجيبه من جهتها دون خوف" اسمك هذا لست بحاجة إليه". وقد تفتحت موهبة أنا في القرية القيصريّة القريبة من بطرسبورغ، كتبت أنا بتأثر بالغ وهي تتمشي في الحدائق التي زرعتها من قبلها شعراء روسيا العظام، بينهم بوشكين كم على هذه الأغصان من وجدانيات معلقة.

وإذا لم يكن نيكولاي غوميليوف، الذي وقع في غرام أنا، يمتلك أي قدر من الوسامة، فالأرجح أن نكاهه الحاد وموهبته العالية، فضلاً عن رغبتها في الانعتاق من سطوة الأب، هي العوامل التي دفعت الصبية الحسنة إلى الإصرار على الزواج منه رغم المعارضة الشديدة للعائلة. وإن قررت أن تقضي شهر عسلها المرتقب بين الربوع الفرنسية والإيطالية، كان القدر من جهته يلعب لعبته الخطرة ويمهد لها سبل اللقاء بموديليانى أحد أعظم الفنانين التشكيليين في العصور كافة. فقد كان أميديو قد قدم من إيطاليا إلى باريس بهدف استكمال دراسته في الفن عام ١٩٠٦، حيث تجمع أكثر الروايات على

مثيل في العالم كما أنه شخص حزين، كتوم، ذو سر مشوق، كتبت أنا عن موديليانى في أحد اعترافاتها المتأخرة، كما تنقل أمانى غيث في كتابها المميز "ملكة النيفا، أنا أخماتوفا". وإذا كانت الأسئلة المتصلة بالأسباب الفعلية التي حالت دون استمرار العلاقة وقتاً أطول لا تجد أجوبة شافية لها، لكن الأرجح بأن التباعد الجغرافي بين المبدعين العاشقين، وإصرار أخماتوفا على عدم مغادرة وطنها الأم، فضلاً عن دخول موديليانى اللاحق في غير مغامرة غرامية، هي من بين العوامل التي أوصلت العلاقة إلى فصلها الختامي. ولعل تكتم أنا على العلاقة ولجوئها إلى إحراق رسائل موديليانى إليها، هو البرهان الأكثر دلالة على الظروف القاسية التي عاشتها. وقد ذهب البعض إلى القول بأن جهاز المخابرات السوفياتي بالذات هو الذي أحرق مكتبة الشاعرة ورسائلها وأوراقها الشخصية أثناء مدهمته لمنزلها.

وإذا كانت أقدار العاشقين المتغايرة لم تنح لقصة حبهما الغامضة أن تستمر طويلاً، إلا أنها رسمت لهما مصيرين ملبدين بالألام ومتشابهين في مألها المأساوي. فموديليانى رسام الشخصيات الطولية والعيون معدومة البؤبؤ الناظرة أبداً إلى الداخل لم توفر له وسامته وموهبته المفرطتان سبل السعادة والراحة اللتين نشدهما بلا طائل. ومع أنه دخل في علاقة عاطفية مع الرسامة وعارضة الأزياء جان هيبوتيرن، إلا أن مزاجه العصبي والمتقلب حول تلك العلاقة إلى دوامة من المشاجرات العنيفة والصاخبة، وحين قرر الزواج منها بعد أن ولدت له ابنة حملت اسم أمها نفسه، كان مرض السل قد أنهكه بالكامل إلى أن فارقت الحياة عام ١٩٢٠، إلا أن المأساة لم تقف عند هذا الحد، بل تمثل فصلها الأكثر قتامة بانتحار عشيقته جان التي كانت حاملاً في شهرها التاسع، ليتم دفنها مع موديليانى في القبر ذاته.

أما أنا التي لم تكف يوماً عن نسج علاقات غرامية مع الرجال، التي كتبت في مقالة لها "إن ثقافة المرأة تقاس بعدد عشاقها"، فقد تزوجت عام ١٩١٨ بعد انفصالها عن غوميليوف من فلاديمير شيليكو، الشاعر وعالم الحضارات دون أن تعثر بسبب غيرته الشديدة على الطمأنينة المنشودة، لتنفصل عنه بعد سنوات ثلاث، أي في السنة ذاتها التي أعدم فيها غوميليوف بتهمة التآمر على نظام الحكم. ثم لتتزوج للمرة الثالثة من المؤرخ نيكولاي يونس، الذي صمدت علاقتها به طويلاً، ليضع لها نظام الاستبداد الستاليني حدها المأساوي بموت يونس مريضاً ويائساً في أحد معتقلاته النائية. على أن خسارات أنا لم تتوقف عند هذا الحد، بل إن هذا النظام بالذات ما لبث أن اغتال ابنها ليف، ودفع من لم يقيم باغتياهم من شعراء روسيا الكبار إلى الانتحار. ومع أن قلب أخماتوفا التي رحلت عن هذا العالم عام ١٩٦٦ كان مكتظاً بالعشاق، إلا أنها في العمق الأخير من روحها كانت قد أفردت لموديليانى مكاناً لا يدانيه أحد. صحيح أن الشواهد الفنية على العلاقة قد اقتضرت على بضع قصائد عاطفية وبورتريه واحد نجا من الإتلاف، وصحيح أن كلا منهما قد دفن بعيداً عن الآخر، لكن الصحيح أيضاً أنهما كانا قد تعاهدا على الموت معاً، وفق ما عبرت عنه أنا في قصيدتها "أغنية اللقاء الأخير"، التي جاء فيها:

"كانت خطواتي يوماً رشيقة وخفيفة

رغم البرودة والعجز في صدري

ومن دون أن أنتبه وضعت في يميني قفازي الأيسر  
وسط الأشجار سمعت الخريف يهملس لي: موتي  
معي

لقد خذلني اليأس

وأعرف أن الحزن والوجع هما قدرتي

ولذا أجبت:

عزيزي: وأنا أيضاً أرغب في أن أموت معك"

عن صحيفة الشرق الاوسط

وعادت بمفردها إلى باريس، حيث كان موديليانى ينتظرها على أحر من الجمر، ليقضيها معها أوقاتاً مترعة بالحب، وليصطحبها وهو المعجب بالفن الفرعوني إلى متحف اللوفر، محاولاً أن يوفر لها معرفة أفضل بفنون التشكيل، فيما قرأت له نماذج من شعرها حازت على إعجابه.

"كان له رأس جميل وعيون تلمع كالذهب ليس له

# الغربة والأسى في شعرِ أنا أحماتوفا

ملاك أشرف



»

وأسيبُ حيثُ لا حاجةٌ بي لشيءٍ  
حيثُ ظلي وحده.. أعزُّ رفيقٍ طريق لي  
والرياحُ تعبُ من الحديقةِ المَقفرةِ  
والدَّرَجَة الباردة تحت قدمي!

»

كتبوا الكثير عن الشاعرة الروسية أنا أحماتوفا. وعندما نقول كتبوا نقصد وصفوا بشكل مُفرط تلك الغربة ومرارة الوحدة، وبإسهاب تكلموا عن وحشتها وكربتها، وعن الاتهامات التي اعترضتها والمحاربات التي طالت. ونحن اليوم عند حديثنا عنها يجلبنا كل هذا إلى من كان يُشابهها من المتعرضات لنفس المنوال.

حينما نذكر الغربة لا مناص من معرفة أنواعها ودرجة تفاوتها بين الشاعرة وغيرها من المعاصرين، علينا الشرح والإطناب عن حياة الشاعرة أولاً، لكي نصل إلى سبب كتابة النصوص الشعرية، الزاخرة بالكمد والسخط!

الشاعر حسب الشيخ جعفر في كتاب مترجم من قبله (مختارات من الشعر الروسي)، جعلنا أمام ضربين لهذه الغربة الملازمة لها بصورة دائمة والتي تُوجع شاعريتها، وينبغي أن يعرف الجميع بآدي ذي بدء أن الشاعرة الروسية عاشت غربتين رهيبتين طيلة حياتها، أولهما غربتها الفكرية، كونها شاعرة برزت من أفق لم يعد مرغوباً وجلياً وقضى أن يعلق إلى الأبد - على حد تعبير حسب الشيخ - وهو يتداخل مع غربتها الأخرى وهي الزمنية وبمعنى غير بعيد بل قريب يرتبط مع غربة الفكر، وما المعاش في الصين ذلك سوى نتاج الأفكار والخيال وتكوين الرؤى ووجهات النظر من منظور ما! وما كانت سوى شبح منفي وتم تاطيرها من قبل الأعمى بهذا الشكل، كانت في عالم غير عالم المراد والتي ترغب به وتطالب بنيله وإن طال الزمان وعذابه الفتك والمهلك للمرء في مرور الأيام، وبتعبير حسب الشيخ (إنها في عالم غير عالمها الروحي)، ولفرادتها الشخصية الحقيقية وبراعتها الأسلوبية مع بهائها الأخاذ، حاوطتها حملات انتقادية فائقة المعقول، وهي حملات إعلانية مستمرة، تتخذ من حزنها وتشاؤمها ونصوصها المترعة بالجزع واللوعات حجة؛ لتهلكتها وتهميشها والقضاء عليها، وكل هذا بجانب المحاولات الدؤوبة لاتحاد الكتاب السوفييات لطردها أحماتوفا منه، ناهيك بإعدام زوجها السابق. رغم أن هذا دفعها إلى أن تعيش وتنظم حياتها على مقام واجف ومضطرب، متبرم، إلا أنها حافظت على أصالتها وبصيرتها وأسلوبها الفذ، مع ذلك الذوق الأدبي والفني السامق، باعتبارها شجرة لا تجرح مكانها وجذورها.

في قصيدة (أنت تعلم)، تبدأ الشاعرة قصيدتها بتذكير الأخر عن شقاها وقبورها المتجبرة، التي تدفعها نحو طلب الموت؛ للخلاص والنجاة، هذه الفلسفة، التي تبين كم أن الموت هو أعظم انتصارات الإنسان، وأهون من العيش بمشقة وإملاق كالذي جلس تحت أشجار الخريف ليؤنس بالطبيعة ونسي ميعاد الخريف في أيلول!

في قصيدة (أنت تعلم)، تبدأ الشاعرة قصيدتها بتذكير الأخر عن شقاها وقبورها المتجبرة، التي تدفعها نحو طلب الموت؛ للخلاص والنجاة، هذه الفلسفة، التي تبين

ووجهات واسعة باهتة وشاحبة، غير مُضيئة ومُوهجة، فنصيغها لنا بهذه الهيئة:

وتلك الجهات الفسيحة الباهتة،  
حيث الريح نفسها خافتة تمر  
ونساء القرية الهادئات، الملوحات  
يلقبن علي نظرات استنكار!

تكاد في الشطر الأخير مُمتعة الوجه وهي تلمح حتى  
الأناس الأشد هدوءاً ووداعة ينكرونها ويرمقوها بشزر،  
يفخونها وهي بينهم تحقن على تلويحاتهم للعابرين  
والأقرباء، وتقدهم الألاع غير العادل كما الحياة؛ وهذا  
من أجل غموض وضباب، لا يفهمونه، يجهلون نزعتها  
الصوفية ورهافة مهجتها وميولها، وأدعاءاتهم هي على  
وفق تصوراتهم ليست هامة ولا يجب أن تؤخذ بعين  
الاعتبار.

هذا ما حركها فعادت وكتبت عن الأمر ذاته في إحدى  
قصائدها قائلة:

أعطني من الأتربة السامة  
ما يجعلني بكما،  
وازح شهرتي الذميمة  
بالنسيان الوضيء.

كانت قصيدة الشاعرة الأساسية (أنت تعلم) مبنية على  
خفة وموسيقى وأجرام باطنية غير ظاهرة كلياً مما  
أفضى بالقصيدة نحو الانسياب والتماشي مع المفردات  
بألق وليونة.

نلاحظ انتقائها للمعاني وصياغتها المُشرقة للأحداث،  
الصياغة الداحضة للضجر والالتباس الملبك.

وحتى في بقية المقاطع الشعرية، التي تلت القصيدة  
الأولى وشرعت بكشفها بسمة أكبر، نلتمس سهولة  
تركيبها وبريقها الأسلوبية، وخفتها الناتجة عن موسيقى  
وتناغم الشجن الأبدى لقلب أحماتوفا، ووصفها لمشاعر  
الإنسان الفعلية، هذه المشاعر المتولدة من بأساة الوجود،  
تعلن عن واقعتها وواقع غيرها من الذين ينازعون  
للبقاء والعيش بفضاء أقل ضنى، وفسحة لا تجتم عليهم  
بانباقات فجائية مُهكّة ومُكررة لجسد المرء.  
لا نستطيع أن نخفي أثر هذا الماضي والأسى في قصائد  
أحماتوفا، فقوة شاعريتها تكمن في استحضار مأسيتها  
وإسها ونحيبها وتوظيفها لهم من خلال مفردات الخيبة

المنتالية في يومياتها والجمل الحادة القصيرة، بيد أن  
هذا أدى بها في بعض مواطن بيت القصيد إلى الإسهاب  
واستهلاك الصور الشعرية والترداد، فتبدوا لي رتيبة  
وبديلاً عن ينابيع إبداعها وفكرها الحيوي المشتعل، فلم  
تحرص الشاعرة على خروجها من ميدان ما اعتادت عليه  
في تجربتها الشعرية إلا ما ندر وربما الترجمات العديدة  
تضيف شيئاً من نكهة المنفى والأين ولذة الألم على  
النص الأصلي، باعتبارهم وقعوا في فخ سيرتها التعسة  
المنافسة للبهجة.

ومن ناحية مُغايرة لهذا، كانت أحماتوفا أُصدق من  
غيرها عند الكتابة فهي لم تبال بالعزوف عن سالف  
ما كتبت ولبثت تصفي الكثير عليه، ناسية التجديد  
والاستحداث في الموضوعات والمضامين على الدوام،  
ماكثة تعبر عن هواجسها وما يختلج في أعماقها فضلاً  
عن أهوائها ووقائع أيامها وتجربتها من العبودية  
بسعيها الحثيث للتحرز من كل شيء ما دامت طول  
حياتها تقترن بالوجود والشروع بمغايرة العدم لظاهر  
ما تطلعت إليه عبر الاقتران بالطبيعة والمحيط، فأمست  
قريبة على القارئ في لحظات التذمر والتشاؤم، مُبتعدة  
عن ميدان الكذب والزيّف والألاعيب الشعرية المعقدة،  
الجارفة للقارئ نحو شواطئ الغموض والتيه سعياً  
لكسب جولات أدبية مرموقة، وإرضاء للقارئ، الباحث  
عن الراحة والخدمات الشعرية المُجددة حسب مزاجه،  
دون الأخذ بالقيمة الأدبية وقواعد الشعر وسمات الشاعر  
الأصيل.

قوة شاعرية أحماتوفا تكمن في استحضار مأسيتها  
وإسها ونحيبها وتوظيفها لهم من خلال مفردات الخيبة  
المنتالية في يومياتها والجمل الحادة القصيرة، بيد أن  
هذا أدى بها في بعض مواطن بيت القصيد إلى الإسهاب  
واستهلاك الصور الشعرية والترداد

أما المكان فهو أقوى حضوراً ربما من أي شيء آخر في  
قصائدها، فلا بد من ذكر مدينة أو قرية أو مساحة كونه  
مُعينة كأن تكون طرقاً أو سجوناً أو منطقة، تضعها مهذا  
هانئاً أو سريراً أو منفي مُتقلباً مُقفرًا أو ملاذاً ومأوى  
لها، وتنشد أشر المماناة من حدث ما وتختصر مسافات  
العالم بين الكلمات، وتحجم ما هو أكبر ويبعد عن الأعين  
بيديها.

فمثلاً في قصيدة (ينهمم الألم) نشاهد دهشتها إزاء المدن  
والأممكية وفرادتها التعبيرية:

إنني لأحب هذه البقاع  
حباً مكيناً، هادلاً لا فكاك منه  
إن قطرة من حياة المدن في دمي  
كقطعة جليد في خمرة مزيدة.

وهذا شيء لا يمكن رآه بأي شكل  
ولم يذب القبط العظيم هذه القطعة  
أيتها القرى الهادئة  
يا إشراقه في مديحي.

وفي قصيدتها (ثانية تمنح لي) تصف الخريف بأوراقه  
الحمراء، الذي سيخلد أغنية الأوجاع والتأوه ويسهم في

ازدياد العذاب والعلل:  
لبي تعيش طويلاً في ذاكرتي  
أغنية الوداع الأليم  
جلب الخريف الأسمر بذيل ثوبه

أوراقه الحمراء المتساقطة..

تبقى القصائد قلقة وخائفة ومتوترة وبعض أشرطها  
متين وبعضها عادي ولكن لا يمكننا أن نتجاوز أو ننكر  
كيف أن شعر أحماتوفا حي، نرى ونسمع مشاهد  
ورسومه وتحركاته؛ ولذلك هي اليوم خالدة، تسير  
وحيدة بيننا، تنم مُستبقطة وهي تتوارى خلف كتاباتنا،  
التي تنزف وجوباً وحرية.

لم يكن حزننا عبثاً، وإن طالبت بأن نغفر لها:

اغفر لي أنني حزينة  
وقليلاً ما ابتهجت بالشمس.

اغفر لي، اغفر لي أنني

تقبلت تلك الزيارات العديدة.

(×) ملاحظة: جميع القصائد في هذه المقالة هي من كتاب  
(مختارات من الشعر الروسي)، والذي نقله عن الروسية  
الشاعر العراقي حسب الشيخ جعفر.

× عن موقع الضفة الثالثة

# الإنسجام بين الطبيعة والإيمان الديني والحياة اليومية في قصيدة لأخमतوفا

محمد تركي النصار

”

(علمت نفسي أن أعيش ببساطة) قصيدة مباشرة في أدائها اللغوي وتشبه الحياة التي كانت تحلم أن تعيشها أنا أخमतوفا، الشاعرة الروسية المعروفة التي كتبت هذه الأبيات احتفاء بالمتع الصغيرة المنسية في الحياة.

“

وتظهر في النص طاقة التأمل الإيجابية في معنى وتفصيل المشهد اليومي بالرغم من المطبات والمتاعب التي عانت منها الشاعرة سياسيا في فترات الحكم الشيوعي السوفيتي الشموليشأنها في ذلك شأن العديد من الأدباء الروس الذين تعرضوا للملاحقة والطرده من الوظيفة والاذلال والنفي. إنها قصيدة مكتوبة عن المتع اليومية البريئة، مشهد الغروب الساحر، هدوء الطبيعة، الألفة مع الكائنات الأخرى، عن البساطة صعبة المثال في خضم احتدام الصراع المادي والاستقتال بين البشر لإشباع حاجاتهم وغرائزهم.

الشعر هنا يحتفي بجمال الطبيعة بكليتها، والحياة تبدو أكثر متعة إذا عرف المرء كيف يعيشها من دون تعقيدات وبلا قلق على الماضي، فعبئس اللحظة الحاضرة فقط بكثافة واستمتاع هو مفتاح السعادات.. لذلك فالمتحدثة في النص تنسى متاعبها الزائلة لتستمتع بحفيف الأشجار في البرية البعيدة، والقطة تلعب يدها، ومشهد النار المتوهجة في برج معمل قريب من بحيرة كلها تفاصيل ساحرة بالنسبة للشاعرة: علمت نفسي أن أعيش ببساطة وحكمة وأنظر للسماء مصلياً لله



manarat

www.almadasupplements.com

رئيس مجلس الإدارة  
رئيس التحرير

عزى ريم

مكي

رئيس التحرير التنفيذي  
علي حسين

سكرتير التحرير  
رفعة عبد الرزاق

منارات

طبعت بمطابع مؤسسة مكي للإعلام  
والثقافة والفنون

وأستمتع بنزهات طويلة قبيل المساءات لأتحرر من مخاوفتي التي لا معنى لها. وحين تصدر الأثواب حفيفاً في الوادي ويتدلى عنقود التوت الأحمر أكتب قصائد سعيدة

عن خراب الحياة، خرابها وجمالها إن عمق اندماح المتحدثة يجعلها من التركيز على كل تلك التفاصيل إلى الحد الذي حتى لو جاء أحد ليطلق بابها فربما لا تسمع طرقاته.

نبرة القصيدة المعبرة عن حب عميق بالطبيعة، هادئة، معتدلة، مثل نسائم الخريف وتعطي انطبعا يساعد على خلق حالة من الصفاء الروحي تحفز الرغبة بالتأمل وباعتماد هذه النبرة الهادئة تسعى الشاعرة لخلق مناخ شعري بسيط، إذ لا تستخدم الشاعرة تقنيات استعارية ومجازية إلا بمقدار محدود، ما يجعل النص مباشراً، دقيقاً، من حيث التركيز على المعنى:

وأعود، فتلعب القطة ذات الفراء راحة يدي، مطلقه مواء محبباً وتتوهج النار فوق برج معمل النشارة القريب من البحيرة

وصرخة اللقلق الذي يهبط على السطح وحدها تكسر الصمت بين لحظة وأخرى ولو طرقت بابي فربما لا أسمع طرقاتك.

ونرى في البيت الأول تضاداً في استخدام كلمتي ببساطة وحكمة، فالمعنى المضمر هنا يعني بأن التفكير البسيط هو الطريقة الوحيدة لأن تعيش بحكمة، وتستخدم الشاعرة المجاز أيضاً في بعض المواقع، والتشخيص في البيت (ويتدلى عنقود التوت الأحمر، أكتب أشعرا سعيدة) مستخدمة مجازاً شخصياً في عبارة أشعار سعيدة.

يظهر البيت الأول في القصيدة أمراً عن طبيعة البشر، فليس طبيعياً أن نعيش بحكمة وبساطة، والمتحدثة لا تلزم نفسها بكيفية تحقيق هذا الهدف، فالبشر بحالتهم الطبيعية يبدون محكومين برغبتهم للحصول على الثروة والمال، لذلك تقول الشاعرة بأنها علمت نفسها أن تعيش ببساطة وحكمة لمقاومة هذا النزوع الذي يحرك طوفاناً من البشر بكل أنواع الصراعات والكذب والمعاناة.

والناس في كل الأماكن يسعون لتحقيق التسلية والجمال في أسلوب حياة عالي المستوى، ولتحقيق هذا الهدف فانت تحتاج إلى المال، والشاعرة هنا تفكر بأسلوب حياة مختلف عن سعي معظم الناس الآخرين، إنها تستمتع بجمال السماء الذي لا يحتاج مالا للاستمتاع به، وكل ما نحتاجه هو التوقف عن الرخص واللهات وننظر ونتأمل، ونصلي للإله وهذا مرهون بتخطي الهنا والأن، فأسلوبها البسيط يتناقض مع الحيوانات المزدحمة فهي تريد من إيمانها أن يوصلها إلى ما هو أبعد من الآن والهنا، التي هناك، مدركة أن الحياة قصيرة والبساطة فيها قيمة لأنها تسمح لها بالتوقف والتفكير بالخالق لتصل إلى معنى وغاية الوجود.

هنا نلاحظ تركيزاً من قبل الشاعرة على أهمية التأمل، فحتى المشي لساعات طويلة تستثمره لهذه الغاية وأيضاً لتبديد قلقها ومخاوفها التي تجلبها هموم العيش، فالمشي طويلاً قبل حلول المساء يخلق متعة ذهنية وصفاء روحياً وهي تفكر في معنى الوجود وتستدل على نوع من الإشراق الملهم في أفكارها.

استمتعها بجمال الطبيعة بلهها لكتابة قصائد سعيدة، وهذا هو الأمر المهم بالنسبة للشاعرة، فمعظم الشعراء يكتبون قصائد حزينة لكننا نلاحظ أن أخमतوفا على النقيض من هؤلاء تكتب هنا عن المتعة والبساطة والفرح، وتعبر بمشاهد وصور من الطبيعة عن توازن مدهش بين تذوق جمال الطبيعة وقوة الإيمان الديني والوفاء للالتزامات الحياتية المعيشية، كل هذا معبر عنه بنص شعري بسيط، متماسك، متين البناء يقدم متعة روحية وجمالية نادرة.

# أخمتوفا ليست أخمتوفا

د. ضياء نافع

”

الى روح المبدع العراقي  
الراحل علي الشوك

“

أردت ان اهدي هذه المقالة الى الكثيرين من المعجبين بالشاعرة الروسية أنا أخمتوفا، ولكني قررت ان اهديها الى علي الشوك بالذات، لاني اذكر جملة في مقالته عن أخمتوفا بعنوان - (كنت أملك كل شيء / نموذج اديب زمن الدكتاتورية)، والجملة تقول - (كانت تثير فضولي كثيرا باسمها الاسلامي... فهي من سلالة جنكيز خان... وقد اختارت اسمها للتري من جهة امها...). ومقالة علي الشوك المذكورة رائعة من وجهة نظري، وقد سبق لي ان كتبت حولها مقالة خاصة بعنوان - (علي الشوك والادب الروسي)، ولكني اريد هنا ان اتحدث عن موضوع آخر تماما، موضوع يرتبط ب(اسمها الاسلامي!) كما يقول الشوك، وهذا الموضوع، كما يشير عنوان مقالتنا، عن أخمتوفا، التي هي (ليست أخمتوفا!!!).

قبل كل شيء، يجب ان نتوقف قليلا عند لقب أخمتوفا باللغة الروسية، كي نوضح أصله. اصل هذا اللقب هو الاسم العربي المعروف - (أحمد)، ولكن لا يوجد حرف الحاء بالروسية، وهكذا يتحول الحاء تلقائيا الى خاء، الموجود بالروسية، اما حرف الدال، فانه (وحسب قواعد التلفظ الروسية) يصبح مخففا لانه جاء في نهاية الكلمة، وهكذا يتحول الى تاء، ويضاف حرف الالف بعد الميم الى هذا الاسم تعويضا عن الفتحة، لعدم وجود (الحركات) بالروسية، وهكذا يتحول (أحمد) بالعربية الى (أخمتا) بالروسية، وعندما يكون هذا الاسم لقبا للشخص، فانه وحسب القواعد الروسية ايضا يصبح (أخمتوف) للمذكر، و(أخمتوفا) للمؤنث، مثل ايفانوف وايفانوفا وبيتروف وبيتروفا... الخ الاقارب الروسية المعروفة للجميع. وعليه، فان لقب الشاعرة الروسية أنا أخمتوفا هو عربي الاصل وليس تتريا، ولكنه خضع للقواعد الروسية ليس الا واصبح هكذا. علي الشوك يقول، ان اسمها (وهو يقصد هنا - لقبها) أثار فضوله، لانه (اسم اسلامي)، وما ذهب اليه علي الشوك بخصوص لقبها صحيح جزئيا، ولكن لا توجد (لغة اسلامية)، واللغة العربية هي لغة الاسلام طبعاً، ولهذا اقول (صحيح جزئيا) حول ما كتب علي الشوك. هذا الاسم عربي بحت، وبخلاف لغات كثيرة اخرى (بما فيها التترية) عن طريق الاسلام طبعاً، وعليه، اكرر، انه يمكن لنا ان نقول وبكل ثقة، ان لقب هذه الشاعرة الروسية عربي الاصل، وهو (أحمد)، وعندما دخل هذا الاسم العربي البحث الى اللغة الروسية، فانه خضع طبعاً للقواعد الروسية وصيغتها، وهكذا تحول الى أخمتوفا.

النقطة الثانية، التي نريد ان نتوقف عندها قليلاً ايضا، وترتبط بما أشرنا اليه أعلاه حول اصول لقبها، هي ان الشاعرة أنا أخمتوفا نفسها لم تذكر، ان اصل



روحية الاجواء الغرائبية التي كانت سائدة في روسيا بداية القرن العشرين بين الشعراء، ولانه يذكر بلقب الخان أخمتا، الذي ترجع اصوله - حسب الاقوال والاساطير - الى جنكيز خان نفسه في تلك القرون البعيدة.

أنا أخمتوفا ليست أخمتوفا في الواقع، بل هي أنا أندريفنا غورينكو، التي ولدت عام 1889 في اوديسا باوكرانيا في الامبراطورية الروسية، وتوفيت عام 1966 في الاتحاد السوفيتي، وتم دفنها في ضواحي لينينغراد، وعند قبرها ينتصب الصليب مثل قبور كل المسيحيين الارثوذكس، ولا علاقة لنا أندريفنا غورينكو بأي تترى اسمه احمد او اخمتا او اخمتوف، وهي ليست من احفاد جنكيز خان باي حال من الاحوال...

روسية...)، اي ان اخمتوفا اختارت اللقب وهي فتاة مراهقة في ذلك العمر اليافع دون تفكير وتأمل كما يجب.

اللقب الذي اختارته الشاعرة الروسية الشابة كان لاحدى جداتها من امها، والتي اكتسبته (اي اللقب) عند زواجها من اخمتوف التتري، وهو تترى متروس، وكان اختيار الشاعرة لهذا اللقب لان والدها قد منعها منعا باتا من استخدام لقب عائلتهم عندما بدأت بنشر قصائدها، واعتبر ان ذلك يسيء الى اسم العائلة، وهكذا اضطرت الى اختيار اسم مستعار لنشر قصائدها، ووجدت اسم زوج ام جدتها لامها بهذا اللقب، واعجبت به واختارته (وهي فتاة مراهقة) نتيجة لرغبتها بالتفرد، اضافة الى جمالية الاسم وجرسه ان صح التعبير، ولانه يتناغم مع

اللقب الذي اختارته لنفسها هو عربي الاصل، وانما قالت، انه تترى، ويرتبط باسم احد اجدادها البعيدين من ناحية الام، وكل المصادر الروسية طبعاً تؤكد وتكرر هذا الشيء، اي تعيد ما قالته وكتبتته الشاعرة نفسها حول ذلك اللقب، ولم أجد اي اشارة في المصادر الروسية كافة الى ان اصول لقبها عربية، بل ان الجميع يقولون انه تترى، وعلى الاغلب، فان الشاعرة نفسها لم تكن تتصور ذلك ايضا، وهي اصلا لم تفكر بعمق وروية بخصوص ذلك اللقب، اذ انها كانت صبية في مقتبل عمرها، وهناك جملة طريفة كتبتها ليديا جوكوفسكايا في مذكراتها عن اخمتوفا تؤكد هذه الحقيقة، والجملة جاءت على لسان اخمتوفا نفسها، والتي تقول فيها، انه (... فقط الفتاة المجنونة كان يمكن لها ان تختار هذا اللقب التتري لشاعرة